



خافياً من قبل أيضاً، أن العنصر الأكبر في تخفيف المعاناة على الأرض الفلسطينية لم يكن يتمثل في تلك المساعدات المالية القادمة عن طريق السلطة، بل كان كامناً في قدرة حماس نفسها على التحرك الشعبي بقوة، في موازاة ممارسة المقاومة، وهذا رغم مقاطعتها أمريكياً وغريباً، ورغم ما مارسه الآلة العسكرية الإسرائيلية فضلاً عن مواقف السلطة وإجراءاتها في السنوات الماضية، واقتصار الدعم الإقليمي على حدود ضيقة. الاحتمال الأكبر هو أن تزداد السياسات الأوروبية

تشدداً -رغم الاختراق الروسي- وأن تقترب من السياسات الأمريكية، في تغطية الإجراءات والتحرك العسكرية والمالية وغيرها من جانب الحكومة الإسرائيلية تجاه حكومة فلسطينية، وتجاه الشعب الفلسطيني، مما لا يخرج في سائر أشكال تطبيقه المتوقعة، عن نطاق «مضاعفة العقوبة» التي تستهدف الشعب نفسه، بسبب تعبيره عن إرادته الحرة، وعدم خضوعه للضغوط حتى الآن.

ولهذا يجب التأكيد أن نجاح حماس لن يكون في ساحة تعاملها مع الساسة الأمريكيين والأوروبيين، وإن كان ذلك لا يمنع من أن إصرارها على الانفتاح دولياً، بما يشمل الغرب، يساهم في ازدياد الكشف عن السياسات الغربية، وإن رافقتها محاولات التغطية عليها بالتميز بين مساعدات إنسانية، يقال إنها لن تنقطع، وأخرى «تطويرية» تُقطع تحت عنوان مقاطعة حماس، وكأن تطوير البنى التحتية التي تدمرها الاعتداءات الإسرائيلية، أو تنفيذ مشاريع اقتصادية لتأمين أماكن العمل والارتزاق للأسر الفلسطينية، لا علاقة له بعنوان «مساعدات إنسانية».

ولا يخفى أن القليل من المساعدات الذي يتجاوز قنوات الفساد المالي ويساهم فعلاً في تنفيذ بعض المشاريع، كان يقابله استمرار حملة التدمير الإسرائيلية للمنشآت على اختلافها، والمحاصيل الزراعية، واتلاف الحقول وأشجارها.. فما الذي كانت تصنعه تلك المساعدات بين سندان الفساد ومطرقة التدمير، ليمكن استخدام ورقة التهديد بقطعها، وسيلة للضغط على

الإنسان الفلسطيني بدعوى محاصرة حماس ومقاطعتها؟

ليس التحدي الأكبر الذي تواجهه حماس هو تلك الضغوط كما بات يرد تأكيد عبر التصريحات الرسمية التي توأمتها موجة من الكتابات الإعلامية، الغربية والعربية، وبالتالي ليس الميدان الأول المطلوب من حماس أن تتحرك فيه، هو إيجاد سبيل من سبيل التفاهم مع صانع القرار الأوروبي أو الغربي عموماً، بشروطه هو، بدلاً من أن تكون الشروط مطروحة من جانب مَنْ يمثل إرادة شعب فلسطين، إنما ينبغي التركيز على التحدي الداخلي، في مجالين اثنين، أحدهما العلاقة مع الفصائل الأخرى، بما في ذلك فتح، فسياسة حماس في السنوات الماضية على هذا الصعيد كانت من الأسباب الرئيسية للفوز في الانتخابات، ويمكن لمزيد من النجاح على هذا الصعيد أن يضع القوى الدولية أمام واقع فلسطيني جديد. والمجال الثاني هو متابعة نهج التعامل مع احتياجات الشعب الفلسطيني، سواء عن طريق الاكتفاء الذاتي، أو عن طريق تأمين المعونة من مصادر أخرى، لا تصل إليها ضغوط المقاطعة الغربية، وهو أيضاً أحد الأسباب الرئيسية للفوز الانتخابي.

إن المغزى الأكبر لفوز حماس، هو أنها لأول مرة في تاريخ قضية فلسطين، قلبت معادلة «سياسة فرض الأمر الواقع»، فاستعادت زمام المبادرة على هذا الصعيد، بعد اقتنادها فلسطينياً وعربياً لزمّن طويل، فاستطاعت فرض الأمر الواقع على أرضية الداخل الفلسطيني، وعلى أرضية الواقع الإقليمي، وعلى الأرضية السياسية الدولية للتعامل مع القضية، وإذا كان من الجوانب التي كشف عنها الفوز الانتخابي، هو أن طريق المفاوضات لم يوصل إلى أمن، ولا سلام، كلي ولا جزئي، ولا إلى تحرير، فإن الجانب المقابل لذلك، هو أن التواصل الطويل الأمد منذ أواخر الستينات من القرن الميلادي العشرين، مع القوى الغربية، لم يوصل أيضاً عبر المفاوضات، والمساومات، إلى إدخال تعديل على سياساتها ومواقفها، في اتجاه الإقرار بشرعية القضية وعدالتها، وحقوق شعب فلسطين وتحريره وتحرير أرضه، فليس المدخل الواقعي الفعال إلى السياسات الأوروبية أو الغربية عموماً، هو ما يرد تعميم معيار الالتقاء أو عدم الالتقاء، والتفاوض أو عدم التفاوض، مع المسؤولين من الدول الغربية، وإنما هو -كما كان في السنوات الماضية- مدخل متابعة بذل الجهد الأكبر رغم العقبات لصناعة الأمر الواقع على أرضية الداخل الفلسطيني وإقليمياً، فآنذاك وآنذاك فقط يمكن رصد تحوّل في المواقف الغربية، وآنذاك تصدر الرغبة في الالتقاء والحوار والتفاوض، عن الطرف الآخر. ■

التغيير الجاري في أرجاء المنطقة، وفق تصاعد الضغوط الشعبية نفسها. ولا يخفى أن الغضب الجماهيرية الكبيرة بسبب رسوم الكاريكاتور المسيئة لمقام النبوة، علامة بارزة للعيان لهذا التغيير.

إن المنطقة إجمالاً مقبلة على جولة جديدة من محاولات الغرب لاستعادة وحدة مواقفه على أرضية جديدة بين القوى المتنافسة فيه، والعمل للحفاظ على مكاسبه غير المشروعة من خلال هيمنته الطويلة الأمد على المنطقة العربية والإسلامية، وللحيلولة دون أن يتخذ التغيير مجرى حضارياً وسياسياً، يقلب الأوضاع الراهنة للعلاقات الغربية بالمنطقة رأساً على عقب. وفي هذا الإطار العام، لا يُنتظر من الدول الأوروبية التراجع عن مواقفها وسياساتها تجاه حماس في المستقبل القريب على الأقل، بعد أن رصدت أيضاً أن الانتفاضة التي كانت حماس محرّكها ومشعلها طوال السنوات الماضية، لعبت دوراً حاسماً في انتشار ظاهرة «حياة الوجدان» الإسلامية عامة، والتي يمكن أن تنبني عليه إنجازات جديدة، تخرج بالمنطقة من موقع التبعية للغرب.

### للضغوط حدودها في صناعة الأمر الواقع

وسائل الضغط التي تلوح بها التصريحات الرسمية الأوروبية والغربية عموماً، لا تمثل أسلحة حقيقية لحصار حماس، لا سيما وأن بعض التصريحات الرسمية كشفت عن أن موقع المعونات المالية محدود الأثر على صعيد مستوى المعيشة اليومية للفلسطينيين، ولم يكن